

أبو بكر بن علي الحداد ومنهجه في تفسيره "كشف التنزيل في تحقيق التأويل"

عبدالقادر عوده هارون الشلبي

التمهيد:

من المعلوم والمؤكد لدى معظم المشتغلين بالبحث العلمي أن المكتبة الإسلامية في مختلف الأقطار ما زالت تذخر بكم هائل من التراث العلمي المخطوط الذي ورثته الأمة الإسلامية عن العلماء الأفاضل الذين تبجروا في مختلف الميادين العلمية. وقد تعرض هذا التراث لمخاطر جمة أدت إلى فقدان كم منه، وتشتت كم آخر بين أصقاع العالم، خاصة مع الأحداث الساخنة التي وقعت في الماضي وما زالت تقع في بعض المراكز الكبرى التي تحوي كمًا - لا بأس به - من هذا التراث، كما هو الحال في مكتبات بغداد التي وقعت أكثر من مرة فريسة للتجار والناهبين خلال الغزو الأجنبي لبغداد أكثر من مرة، حيث لم تسلم المكتبات من تسهيل لعمليات النهب والسلب والاعتداء بكل أشكاله وبأشبع صورته، مما أفقد المكتبة الإسلامية كمًا كبيراً من تراثها العلمي لا يقدر بثمن.

وفي المقابل لا شك أن هناك جهوداً فردية وجماعية كبيرة بذلت على مرّ السنين وفي مختلف بقاع الأرض، وجهوداً أخرى ما زالت تبذل للحفاظ على ما بقي ونجا من هذا التراث الثمين من أيدي العبث والعدوان، بل وإبرازه وتميئته للباحثين والدارسين وطلبة العلم ومراكز الإشعاع العلمي للتعرف على ما فيه من العلوم والدرر والإفادة منه، ليس لأجيال الأمة الإسلامية فحسب، بل للبشرية جمعاء، فقد انبرى لذلك الغرض العديد من العلماء والعاملين في هذه المجالات، إضافة إلى عدد من المؤسسات والهيئات والمراكز البحثية، إلا أن هذه الجهود لم تحط بهذا البحر إلى الآن مما بقي من المخطوطات في مختلف أنحاء البلاد الإسلامية، ناهيك عما تضمه المكتبات العالمية خارج العالم الإسلامي.

ولا شك أن جزءاً كبيراً من هذا التراث كان يتعلق بالقرآن الكريم وعلومه من التفسير وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والقراءات... ولما كان كتاب الله الحكيم يحمل نبأ من سبقنا، وخبر من بعدنا، والحكم فيما بيننا، ونبراساً ونوراً يضيء لنا الطريق، ويهدينا ويهدي البشرية سواء السبيل، ولما كان قراء القرآن الكريم هم حملة سر الله المكنون وحفظة علمه المخزون وخلفاء أنبيائه وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياءه، كما جاء في قوله صلى الله عليه وسلم: "إن الله أهلين من الناس، قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: هم أهل القرآن، أهل الله وخاصته"^(١).

وكذلك نظراً لفضل المشتغلين بالقرآن وعلومه كما أشار وأفصح عنه النبي الكريم صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهّل الله له به طريقاً إلى الجنة، وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده"^(٢).

أقول: بالنظر إلى ما سبق، فقد حرصت على الظفر بمخطوطة في تفسير القرآن الكريم، وذلك للمساهمة بجهد المقل في الحفاظ على هذا الكنز والإفادة منه، على الرغم من كثرة الدراسات القرآنية والتفاسير العديدة للقرآن الكريم التي صنفت على مر العصور، والتي قد تناوّلها الدارسون بالشرح والتحقيق والاختصار، فإن كلام الله تبارك وتعالى لن يحيط به البشر، مهما بلغوا من العلم والمعرفة، ولم يأخذوا منه إلا كما يأخذ المخيط من الماء إذا أدخل البحر، ويبقى القرآن الكريم مصدر إشعاع علمي وروحي مستمر.

وقد يسّر الله لي الحصول على مخطوطة في التفسير بالمكتبة السليمانية في إستانبول، ألا وهو تفسير الحداد المسمى: كشف التنزيل في تحقيق التأويل لمصنّفه العلامة أبي بكر بن علي الحداد، وذلك قبل أحد عشر عاماً، فحرصت على خدمة هذا الكتاب، وبيان قيمته العلمية، ومكانته في سياق التفاسير الكثيرة التي أنتجتها العقلية الإسلامية وهي تسعى إلى فهم كلام الله تعالى. وفي هذا المقال القصير سأسعى إلى التعريف بمؤلف الكتاب والمنهج الذي اتبعه في وضع هذا التفسير.

١- أبو الحسن علي بن خلف بن عبد الملك بن بطل البكري القرطبي، شرح صحيح البخاري، تحقيق: أبو تميم،

ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، الرياض، السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج ١٠، ص ٢٦٦.

٢- أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، صحيح مسلم، باب فضل الاجتماع على الخير،

دار الجليل، بيروت، ودار الآفاق الجديدة، بيروت، ج ١٣، ص ٢١٢.

المبحث الأول: ترجمة المفسر:

مولده ووفاته:

على الرغم من العلاقة الثقافية المتينة بين جنوب الجزيرة العربية وشبه القارة الهندية منذ زمن بعيد، وهو أمر زاده الإسلام قوة، خاصة بين اليمن وهذه المناطق الواقعة على طريق التجارة التي اشتهر بها أهل اليمن منذ عصور خلت، على الرغم من هذا فإن المصادر لم تسعني كثيرا في الحصول على ترجمة أكثر تفصيلا عن شخصية صاحب هذا التفسير، لذلك فقد اعتمدت على المصادر المعروفة في التراجم إضافة لما تمكنت من الحصول عليه من اليمن وغيرها. وبعد البحث خلصت إلى أنه: رضي الدين أو فخر الدين أبو بكر بن علي بن محمد الحداد العبادي (الزبيدي) المصري اليمني الحنفي^(٣) توفي سنة ٨٠٠ هجرية في زيد. وأما مولده فلم أجد ما يشير إلى تاريخه فيما توفر لي من مصادر غير أنه ولد في مصر. لقبه واسمه:

رضي الدين وفخر الدين: فأحيانا يذكر على أنه رضي الدين كما في معجم المؤلفين^(٤) وأخرى بفخر الدين كما ذكره بروكلمان^(٥) وأحيانا بدونها مع ذكر الفقيه أو العلامة، مما يشير إلى أن هذه الألقاب أعطيت له نظراً لاشتهاره بالعلم والعبادة والزهد ومكانته بين الناس^(٦). اسمه كما ذكره بروكلمان وجميع المصادر التي ترجمت له فهو أبو بكر^(٧). واسم والده هو علي بن محمد. أما الحداد أو الحدادي فهو اسم العائلة، وهذا وجد في جميع الترجمات التي عرفت به^(٨). العبادي: نسبة إلى العبادية، وهي قرية من قرى

٣- كارل بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، نقله إلى العربية عبد الحليم النجار، دار الكتاب الإسلامي، قم، إيران، الطبعة الثانية، ص ٩٣٨، ٢٥٠. محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، دار السعادة، القاهرة، مصر، ط ١، ١٣٤٨ هـ، ج ١، ص ١٦٦. إساعيل باشا محمد أمين بن مير سليم، هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الحلبية في مطبعة البهية، إستنبول، تركيا، ١٩٥١ م، ج ١، ص ٢٣٦.

٤- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، باب التاء.

٥- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٥٠.

٦- الشوكاني، البدر الطالع، ص ١٦٦.

٧- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٥٠، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، باب التاء.

٨- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٥٠، الزركلي، الأعلام، دار العلم للملايين، ط ١٥، ٢٠٠٢ م، ج ٢، ص ٦٧، مولانا محمد طاهر پنج پير، نيل السائر في طبقات المفسرين، دار القرآن، مركز اشاعة التوحيد والسنة، باكستان، ص ٢٥٨.

حازة وادي زيد في تهامة، والحازة اسم لما قارب الجبل^(٩). الزبيدي: نسبة إلى مدينة زيد في اليمن، حيث استقر فيها ومات ودفن. المصري: المولد كما أشار عمر رضا كحالة في ترجمته له^(١٠)، وكذلك بروكلمان^(١١)، وهذا يجيب على السؤال الذي يطرح نفسه بأن أهل اليمن قد غلب اتخاذهم المذهب الشافعي مسلوكا، واشتغلوا به دراسة وإنتاجا، فكيف ظهر الحداد كفقيه حنفي في هذه المنطقة؟! فظهر أنه ولد في مصر وبدأ حياته وتعليمه فيها، ثم انتقل إلى اليمن حيث تتلمذ على يد بعض أهل العلم هناك، من أمثال الفقيه أبي بكر الهاملي وغيره، فكانت انطلاقة العلمية وعطاؤه البارز في اليمن. اليمني: نسب هذه النسبة لأنه قد توجه إلى اليمن واتخذها موطنًا ومستقرًا وميدانًا لعطاءه العلمي، وكانت فيها وفاته. الحنفي: نسبة لمذهب الفقيه، فهو حنفي المذهب، وقد تبخر فيه دراسة وعلمًا وتصنيفًا، حيث كانت له آثار فقهية متعددة، ولذلك اشتهر بالفقيه، إضافة لاشتغاله بأنواع أخرى من العلوم.

وهنا تساؤل آخر يطرح نفسه، فإنه من المعروف أن التوافق الفقهي بين الشافعية والأحناف نادر، فكيف علاقته بعلماء الشافعية في اليمن؟! لقد استمر في تلقيه العلمي وعطاءه، وكان له احترامه ومكانته، يدل على ذلك تلك الألقاب التي أطلقت عليه "فخر الدين ورضي الدين والعلامة والفقيه..." وبهذا يكون الحداد نموذجًا للتوافق مع المذاهب الإسلامية الأخرى، على الرغم من بقاءه على مذهبه.

شيوخه:

درس على يد والده علي بن محمد الحداد، فكان أول شيوخه، إضافة إلى ذلك درس على يد شيخه أبي بكر بن علي بن موسى الهاملي^(١٢) حيث كان فقيهاً كبيراً في زيد، ويبدو أنه سمي باسمه توقعاً من والديه أن يكون له شأن علمي. كما تتلمذ على يدي الشيخ علي بن نوح^(١٣)، والشيخ علي بن عمر العلوي^(١٤).

-
- ٩- الزركلي، الأعلام، ج ٢ ص ٦٧.
- ١٠- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، باب التاء.
- ١١- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، ص ٢٥٠.
- ١٢- الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٦٧، مصطفى بن عبدالله حاجي خليفة، كشف الظنون، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ج ٢، ص ١١٦٣، ١٨٦٨. إساعيل باشا، هدية العارفين، ج ١، ص ٢٣٥، عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ج ١، ص ٤٤٢، عبد الله محمد الحبيشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، مركز الدراسات اليمنية، صنعاء، اليمن، ص ١٨٧.
- ١٣- عبد الله محمد الحبيشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص ١٩٢.
- ١٤- المصدر السابق، ص ١٩٢.

وفيماء يلي ترجمة لبعض هؤلاء المشائخ يمكننا أن نتوقع بقوة أن صاحبنا تربي وتعلم على كتبهم.

أ- أبو بكر بن علي بن موسى الهاملي:

السراج أبو بكر بن علي الهاملي الحنفي اليمني، المتوفى سنة ٧٦٩ هجرية.

من مؤلفاته:

- ١- درر المهدي وذخر المقتدي نظم بداية المهدي - مخطوطة، تعرف بـ: "أرجوزة الهاملي أو المنظومة الهاملية" أوردها الزركلي، وهي في فروع الحنفية (١٥).
- ٢- شرح مختصر القدوري في الفقه الحنفي. وكان إلى ذلك شاعراً، منطقيًا، فصيحًا، حتى قيل عنه كالذي روي عن أبي العتاهية الشاعر العباسي الشهير: "لو أراد أن يكون كلامه كله شعرًا لفعّل، لسهولة الشعر عليه". توفي عام ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م.

ب- الشيخ علي بن نوح:

هو أبو الحسن موفق الدين، المعروف والمشهور بـ: الأبوي، يتصل نسبه بالصحابي الجليل أبي بن كعب رضي الله عنه. أصله من جزيرة زيلع، من بلاد الحبشة سابقا وتابعة للصومال حاليا. فقيه حنفي المذهب. رحل عن بلاده للحج، وفي طريق المدينة المنورة وجد الفقيه السراج الحمراي الهاملي، فأخذه معه إلى اليمن، فاستقر مدة في قرية السلامة، في وادي نخلة، شرقي مدينة حيس، مقيمًا عند الفقيه علي الزيلعي، ثم رحل إلى مدينة زبيد فسكنها، واشتغل بالتدريس في المدرسة المنصورية، وإمامًا بمسجد الأشاعر. من تلاميذه: الفقيه علي بن عثمان الخطيب، والفقيه تقي الدين عمر بن عبد الله المكي، وغيرهما. كان مبارك التدريس، مشهورًا بالصلاح. توفي في مدينة زبيد عام ٧٥١ هـ / ١٣٥٠ م ودفن في مقبرة باب سهام المشهورة (١٦).

ثناء العلماء عليه:

لقد ذكره العلماء وأثنوا عليه ثناء كثيرًا، ويظهر ذلك من الألقاب التي لقب بها، فتارة نجدهم يصفونه بالعلامة، وتارة بالفقيه، وذلك نظراً لآثاره العلمية القيمة التي قدمها في الميادين العلمية المختلفة، إضافة إلى ما عرف عنه واشتهر به من زهد وورع وعبادة. فقد ذكر الزركلي أن الضمدي قال عنه: "له في

١٥- مخطوطة في ٨١٤ صفحة بالمكتبة العباسية بالبصرة. حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٨٦٨.

١٦- الشيخ علي بن الحسن الخزرجي، العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تصحيح وتنقيح محمد بسيوني عسل، الطبعة الأولى، ١٣٢٩ هـ / ١٩١١ م، ج ٢، ص ٨٥.

مذهب أبي حنيفة مصنفات جلييلة لم يصنف أحد من العلماء الحنفية باليمن مثلها كثرة وإفادة، تبلغ كتبه نحو عشرين مجلداً^(١٧). كما بيّن عبد الله بن محمد الحبشي أن أبا بكر الحداد قد برع في علم الفقه وغيره من العلوم الأخرى كال تفسير والتاريخ^(١٨).

وكان من أبرز علماء اليمن الذين أشادوا بالحداد عالمها الشهير ومفسرها المعروف محمد بن علي الشوكاني، حيث أثنى على خدماته العلمية في الفقه الحنفي بصورة عامة، وكذلك على تفسيره الذي اشتهر عند الناس آنذاك بتفسير الحداد حيث قال: "قرأ على والده وعلى علي بن نوح وعلى علي بن عمر العلوي، وبرع في أنواع من العلم، واشتهر ذكره وطار صيته، وصنف مصنفات في فقه الحنفية، منها: شرحان ل: مختصر القدوري صغير وكبير، وجمع تفسيراً حسناً هو الآن مشهور عند الناس يسمونه تفسير الحداد، وله مصنفات كثيرة تبلغ عشرين مجلداً، مات سنة ٨٠٠ ثمان مائة بمدينة زبيد، وله زهد وورع وعفة وعبادة"^(١٩).

مصنفاته:

بعد التتبع والبحث عن مصنفات الفقيه العلامة أبي بكر الحداد وجدت ما يلي من مصنفات

نسبت إليه:

١- اختصار شرح مختصر القدوري المسمى ب: الجوهرة النيرة في ثلاث مجلدات، وهو مخطوط. وجاء في كشف الظنون: "مختصر القدوري في فروع الحنفية للإمام أبي الحسين أحمد بن محمد القدوري البغدادي الحنفي المتوفى سنة ٤٢٨، شروحه كثيرة.. وشرحه الإمام أبو بكر بن علي المعروف بالحدادي العبادي المتوفى في حدود ٨٠٠ ثمان مائة، في ثلاث مجلدات سَمَّاه السراج الوهاج الموضح لكل طالب محتاج، ثم اختصر هذا الشرح وسَمَّاه الجوهرة النيرة"^(٢٠).

٢- تفسير الحداد المسمى ب: كشف التنزيل في تحقيق التأويل^(٢١) موضوع هذه الدراسة.

٣- سراج الظلام وبدر التمام، شرح فيه منظومة شيخه الفقيه أبي بكر بن علي بن موسى الهاملي في

١٧- الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٦٧.

١٨- عبد الله محمد الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص ١٩٢.

١٩- محمد بن علي الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ١، ص ١٦٦.

٢٠- حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٦٣١، وانظر: مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص ١٩٢.

٢١- الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، الزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٦٧، مصادر الفكر العربي

الإسلامي في اليمن، ص ١٢، ٢١.

- الفروع المنظومة الهاملية المسماة بـ: درر المهتدي وفخر المقتدي نظم بداية المهتدي، يقول حاجي خليفة في الكشف: "المنظومة الهاملية في الفروع للسراج أبي بكر بن علي الهاملي الحنفي اليميني، المتوفى ٧٦٩، شرحها تلميذه الشيخ أبو بكر بن علي الحدادي الحنفي، المتوفى في حدود سنة ٨٠٠، في مجلدين كبيرين" (٢٢).
- ٤- شرح قصيدة قيد الأوابد: قصيدة مشهورة في اللغة لإسماعيل بن إبراهيم الربيعي (ت ٤٨٠ هـ). المسماة بـ: شرح قيد الأوابد (٢٣).
- ٥- شرح مختصر القدوري في فروع الحنفية للإمام أبي الحسين أحمد بن محمد القدوري، المسمى بـ: السراج الوهاج الموضح لكل طالب محتاج في ثلاث مجلدات (انظر النقطة رقم ١ السابقة) (٢٤).
- ٦- شرح منظومة النسفي (٢٥) في الخلافات المسماة بـ: النور المستبين أو النور المستنير (٢٦). منظومة الخلافات (مجلد كبير).
- ٧- شرح قيد الأوابد، وهو مصنف في الفقه في مجلد سماه بـ: الرحيق المختوم (٢٧).

المبحث الثاني: تفسير كشف التنزيل في تحقيق التأويل ومنهجه:

كما أشارت المصادر المختلفة إلى أن الحداد قد صنّف عدداً من المصنفات فقها وشرحا واختصارا، فقد أثبتت له أنه صنّف ما اشتهر بتفسير الحداد، وهو كشف التنزيل في تحقيق التأويل. وهذا ما تؤكده المصادر المعتمدة مثل البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاني وكتاب مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن لمصنّفه عبدالله محمد الحبشي وكذلك الأعلام للزركلي. وسأقوم فيما يلي بالتعريف بهذا التفسير وأهميته ومنهج المصنف فيه.

أهمية التفسير:

لقد اشتغل المسلمون بالعلوم المتنوعة المتعلقة بالقرآن الكريم، سواء ما كان منها خاصا بالقراءات أو أحكام التلاوة أو التفسير أو أسباب النزول أو النسخ والنسخ أو الأحكام. وكان هذا ديدن المسلمين في مختلف البقاع دون تمييز بصورة عامة، فجاء هذا انطلاقا من عقيدة المسلمين،

٢٢- حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٨٦٨.

٢٣- المصدر السابق، ج ٢، ص ١٣٦٧.

٢٤- مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص ١٩٢، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٦٣١.

٢٥- أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفي ت ٥٣٨ هجرية.

٢٦- مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص ١١٧، ١٩٢، كشف الظنون، ج ٢، ص ١٨٦٧.

٢٧- كشف الظنون، ج ٢، ص ١٣٦٧.

وأن القرآن الكريم هو المصدر الأول لهذا الدين، وليس بيانه وخدمته نوعاً من الترف العلمي أو الفكري، بل هو واجب حتم على الأمة. وإضافة إلى أنه كلام الله تعالى فهو مليء علماً وفقهاً وخيراً، ومهما أبحر الإنسان فيه، فلن يتمكن من الإحاطة بكنوزه الهائلة التي لا تحصى، ولا يأخذ منه إلا كما يأخذ المخطط من الماء إذا أنزل البحر.

وقد كان لأهل اليمن - وإن نزحوا عن هذه البقعة نفسها - نصيبهم من هذا الاهتمام، حيث بدأ الاهتمام بالقرآن عندهم منذ السنوات الأولى، وبالتحديد منذ عهد الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين ارتبط بداية الاشتغال به بالتابعي كعب الأحبار، وهو من يهود اليمن الذين أسلموا، وكذلك وهب بن منبه.

وبرغم انشغال المسلمين في الفتوحات وهدوء الاشتغال بهذه العلوم المتعلقة بالقرآن الكريم في بعض الفترات، إلا أن الاهتمام العلمي بالتفسير في اليمن قد عاد وبنشاط منذ أواخر القرن الهجري السادس (٢٨).

وقد ظهرت عدة مصنفات في هذا المجال مثل:

- تفسير القرآن لنشوان الحميري (ت ٥٧٣هـ).
- الروضة والغدير في تفسير آيات الأحكام لمحمد بن تاج الدين (ت ٧٢٠هـ).
- كتاب تيسير البيان في أحكام القرآن للعلامة محمد بن نور الدين الموزعي (ت ٨٢٥هـ) (٢٩).
- ويأتي هذا التفسير كشف التنزيل في تحقيق التأويل من ضمن هذه المجموعة التي ظهرت في هذه الفترة من الزمن في اليمن، وقد كان لهذا التفسير ميزات جمعت بين المكانة العلمية التي ظهرت في هذا التفسير وجعلت العلماء يذكرونه ويشيدون به، كما أشار إلى ذلك الإمام الشوكاني حين قال: "تفسير حسن مشهور الآن عند الناس يسمونه تفسير الحداد" (٣٠)، وجمع مع هذه المكانة العلمية قبول الناس وإقبالهم عليه، مما يشير إلى قدر الجهد والاهتمام الذي بذله العلامة الحداد رحمه الله في إخراجه وجعله مصنفًا يتناوله الناس ويقبلون عليه حسب مفهوم إشارة الشوكاني، وتبدو مظاهر التميز لهذا التفسير فيما سنبينه خلال استعراض منهجه الذي اتبعه في تفسيره.

٢٨- انظر: عبد الله محمد الحبشي، مصادر الفكر العربي الإسلامي في اليمن، ص ١١.

٢٩- المصدر السابق، ص ١١.

٣٠- الشوكاني، البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج ١، ص ١٦٦، والزركلي، الأعلام، ج ٢، ص ٦٧.

منهج المفسر:

تعددت مناهج المفسرين في تناولهم لآيات القرآن الكريم، وذلك باعتباريات مختلفة، منها: التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي أو الجمع بينهما، والتفسير بالتركيز أكثر على ناحية من الكتاب العزيز كالبلاغة أو النحو أو الأحكام الفقهية أو غير ذلك، والاهتمام بإيراد القراءات أو إهمال ذلك، والاهتمام بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وإهمال ذلك، وهكذا. ومن هنا برزت في داخل علم التفسير مدارس متعددة، ولعلنا نستطيع أن نسلك أبا بكر الحداد في إحدى هذه المدارس بعد أن نتبع المعالم التالية في منهجه التفسيري للقرآن الكريم.

ولعل أبرز ما نلاحظه من معالم هذا المنهج هو ما يلي:

١- أنه يبدأ بالتعريف بالسورة، ويبين عدد حروفها وكلماتها وكذلك عدد آياتها، ثم يذكر إن كانت هذه السورة مكية أم مدنية، أو أن السورة مكية وبعض آياتها مدنية، أو أن السورة مدنية وبعض آياتها مكية، ويشير إلى الآراء الواردة في ذلك إن كان هناك تعدد في الآراء، ثم يقوم بالترجيح بينها عندما يظهر له ذلك، وإلا يترك ذلك للقارئ. مثال ذلك في سورة الفاتحة، يبدأ بقوله: "سورة الفاتحة: سبع آيات، وخمس وعشرون كلمة، ومائة وثلاثة وعشرون حرفاً، وهي مكية عند ابن عباس رضي الله عنهما ومدنية عند مجاهد وقتادة، والله أعلم".

ومثال آخر نأخذه مما بدأ به تفسير سورة المائدة حيث يقول: "سورة المائدة مدنية إلا قوله تعالى:

﴿أَيُّومَ يَسِّسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فإن هاتين الآيتين نزلتا بمكة بعد الفتح، وحكمهما حكم المدنية لنزولهما بعد الهجرة، وعدد حروفها أحد عشر ألفاً وتسع مائة وثلاثة وثلاثون حرفاً، وعدد كلماتها ألفان وثمان مائة وأربع كلمات، وعدد آياتها مائة وعشرون آية عند الكوفيين واثنان وعشرون عند الحجازيين وثلاث وعشرون عند البصريين". ونلاحظ أن المصنف لم يرجح أيًا من هذه الآراء، إلا أنه في تفسيره لهذه السورة اعتمد الرأي الأول وهو أن عدد آياتها مائة وعشرون آية دون النص عليه.

٢- يشير إلى فضل تلك السورة وما جاء بشأن خصوصيتها، فيذكر الأحاديث التي وردت في ذلك، أو ما جاء على لسان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وأحياناً يتناول ذلك في بداية تفسيره للسورة، كما فعل عند تفسيره لسورة البقرة، أو يذكر ذلك في نهاية تناوله لها كما فعل عند تفسيره لسورة الفاتحة.

مثال ذلك في سورة البقرة: في حديثه عن فضل سورة البقرة يذكر ما جاء عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم حيث يقول: " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل شيء سنّام، وسنّام القرآن سورة البقرة، من قرأها في بيته نهاراً لم يدخله شيطان ثلاثة أيام، ومن قرأها في بيته ليلاً لم يدخله شيطان ثلاث ليالٍ" (٣١). وقال صلى الله عليه وسلم: "تعلمها أي البقرة وآل عمران بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة" (٣٢).

وأما مثال ذكره لفضل السورة في نهاية السورة فهو كما جاء في تفسيره لسورة الفاتحة بقوله في آخرها: "قال صلى الله عليه وسلم: فاتحة الكتاب رقية من كل شيء، إلا السام وهو الموت" (٣٣). وروي أن جبريل عليه السلام قال للنبي صلى الله عليه وسلم: "كنت أخشى العذاب على أمتك، فلما نزلت فاتحة الكتاب أمنت، لأنها سبع آيات وجهنم لها سبعة أبواب، فمن قرأها صارت كل آية طبقا على باب" (٣٤).

٣- مما يلاحظ على التفسير أيضاً أن المصنف يستشهد بالأحاديث وأقوال العلماء ويلتزم النص كما هو في الأصل، وأحياناً نجد لديه اختلافاً في بعض الألفاظ، وأحياناً أخرى نجده يتفق مع الأصل في المعنى وليس في الألفاظ، لكنه على أي حال لا يشير إلى ذلك ولا يتضح الأمر للقارئ إلا بعد البحث والتحري. ليس المقصود بالنسبة للأحاديث اختلاف الروايات، وهو أمر واقع في بعض الروايات، بل المقصود أن ما يستشهد به في بعض الأحيان لا نجد أية رواية مطابقة له في اللفظ فيما بين أيدينا من كتب السنة. ومن الأمثلة على التزامه بالنص كما هو في المصادر التي بين أيدينا ما جاء في حديثه عن الفرار من

٣١- الحافظ أبو حاتم محمد بن حبان البستي، الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، رتبّه الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرّج أحاديثه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ج ٣، ص ٢٤، رقم ٧٧٧. أحمد بن علي بن المنى أبو يعلى الموصلي التميمي، مسند أبي يعلى، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، سوريا، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج ٦، ص ٥٠٧، رقم: ٧٥١٦.

٣٢- أخرج مسلم في كتاب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة: عن أبي أمامة الباهلي قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "اقرأوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه، اقرأوا الزهراوين: البقرة وسورة آل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف تحاجان عن أصحابهما، اقرأوا سورة البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعها البطلة".

٣٣- عبدالله بن عبد الرحمن أبو محمد الدارمي، سنن الدارمي، في فضائل القرآن، تحقيق: فواز أحمد زمرلي وخالد السبع، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، عن عبد الملك بن عمير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "فاتحة الكتاب شفاء من كل داء"، ح رقم: ٣٢٣٦.

٣٤- لم أعثر عليه فيما توفّر لي من مصادر.

الطاعون وغير ذلك خلال تفسيره للآية الكريمة: ﴿لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ... الآية﴾ فيقول.. وروي "أن عمر رضي الله عنه أراد أن يدخل الشام وبها طاعون فاستشار أصحابه في ذلك، فأشار عليه بعض المهاجرين بالرجوع، فعزم على الرجوع، فقال له أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين، أتفر من قدر الله تعالى؟ فقال عمر: لو كان غيرك يقولها يا أبا عبيدة، نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرايت لو كان لك إبل فهبطت بها واديا له عدوتان إحداهما خصبة والأخرى جذبة ألسنت إن رعيتها الخصبة رعيتها بقدر الله تعالى، وإن رعيت الجذبة رعيتها بقدر الله تعالى؟ فجاء عبدالرحمن بن عوف فقال: عندي في هذا علم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إذا وقع هذا الرجز بأرض فلا تدخلوا عليه، وإذا وقع وأنتم بها فلا تخرجوا منها. فحمد الله تعالى عمر ورجع". فنجد هذه الرواية بنصها قد أخرجها البخاري ومسلم (٣٥).

وأما ما جاء فيه اختلاف في بعض ألفاظه، فمثاله ما ذكره في تفسيره للآية ٢٠ من سورة الأنعام في قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ﴾ يقول: "كما روي في الخبر أن عمر رضي الله عنه قال لعبد الله بن سلام: يا أبا حمزة أتعرف محمداً صلى الله عليه وسلم كما تعرف ابنك؟ قال: يا عمر! إن معرفتي به أشد من معرفتي بابني، لأن أمين السماء - يعني جبريل - جاء بنعته إلى أمين الأرض، وهو موسى عليه السلام فعرفته، فأما ابني فلا أدري ما أحدث النساء بعدي؟ فقال عمر رضي الله عنه وفقك الله يا ابن سلام". أخرج الثعلبي من طريق السدي الصغير عن الكلبي عن ابن عباس مثل هذه الرواية (٣٦).

وأما نموذج ما لم أجد له أصل فمنه ما جاء في معرض تفسيره لسورة البقرة الآية ١٣٥، قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ فيقول: "قال ابن عباس: نزلت في رؤوس يهود المدينة كعب بن الأشرف وابن الصيف ووهب بن يهودا وأبي ياسر، وفي نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابها، خاصموا المسلمين في الدين، فقالت اليهود: نبينا موسى أفضل الأنبياء، وكتابنا التوراة أفضل

٣٥- محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، صحيح البخاري الجامع الصحيح المختصر، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، لبنان، ط ٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، حديث رقم ٥٣٩٧. صحيح مسلم، حديث رقم: ٢٢١٩.

٣٦- جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج ١، ص ٣٥٧.

الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بعيسى والإنجيل ومحمد والقرآن، وقالت النصراني: نبينا عيسى أفضل الأنبياء، وكتابنا الإنجيل أفضل الكتب، وديننا أفضل الأديان، وكفرت بمحمد والقرآن، وقال كل واحد من الفريقين للمسلمين: كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك"، فهذا النص أو مفهومه لم أعثر عليه فيما توفر لي من مصادر، وقد تكرر أمثال هذا في تفسيره مراراً. وذلك ليس خاصاً بالروايات والأحاديث وإنما أيضاً في الأقوال الأخرى، ففي الآية التالية وفي بيانه لمعنى الحنف يقول: "الحنف ميل القدمين، سمي إبراهيم حنيفاً لأنه حنف عما كان يعبد آباؤه، أي عدل، وقيل: الحنف: الاستقامة". أقول: لم أجد من قال ذلك.

٤ - يقوم ببيان أسباب النزول مدعماً ذلك بما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة الكرام، ولا تخفى أهمية معرفة أسباب النزول عند تناول الآيات بالشرح والبيان والتحليل حيث تتبلور الصورة تماماً في ذهن القارئ عند معرفته سبب ومناسبة نزول الآية أو الآيات وزمانها. مثال ذلك: في تعليقه على سبب نزول قوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمَنَّا﴾. يقول المصنف: "قال عبد الله بن أبي بن سلول الخزرجي عظيم المنافقين من رهط سعد بن عباد، وكان إذا لقي سعداً قال: نعم الدين دين محمد صلى الله عليه وسلم، وكان إذا رجع إلى رؤساء قومه من أهل الكفر، قال: شدوا أيديكم بدين آبائكم، فأنزل الله تعالى هذه الآية".

٥ - يحرص خلال تناوله لشرح الآيات على ذكر المعنى اللغوي وآراء اللغويين والنحويين في ذلك مبيناً أدلتهم وحججهم وبراهينهم. مثال ذلك: بدأ بشرح قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِكُمْ وَيُؤْتِكُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، أخذ يذكر معنى يمدهم فيقول: وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِكُمْ﴾ أي يمهلهم ويتركهم في ضلالتهم يتحIRON، يقال: مد في الشر ويمد في الخير. وقال يونس: "المد في معنى الترك، والإمداد في معنى الإعطاء". وقيل: مده وأمده بمعنى واحد. وقال الأخفش: "يمدهم أي يمد لهم، فحذف اللام".

٦ - تدعيمه المعاني التي يذكرها بما جاء في آيات في مواضع أخرى من القرآن الكريم، وهذا هو تفسير القرآن بالقرآن. مثال ذلك: عندما يستكمل شرح الآية السابقة وحول كلمة ﴿وَيُؤْتِكُمْ﴾ يقول المصنف: وقرأ ابن محيص: ويمدهم بضم الباء وكسر الميم لغتان، إلا أن المد أكثر ما يأتي في الشر، قال تعالى: ﴿وَنُمَدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾، والإمداد من الخير، قال تعالى: ﴿وَيُمَدِّدُكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

٧- استخدامه للشواهد من الشعر العربي، وذلك عندما يأتي بمعنى الكلمة أو ضبط لفظها، ومن ذلك ما أورده في الاستدلال والاستشهاد على كلمة أمين (بالمدم أم بالقصر) حيث أورد شاهداً على كل واحد، فيقول ما يلي:

قال الشاعر^(٣٧) في القصر:

تباعد عني فطحل إذ رأيته أمين فزاد الله ما بيننا بعدا

وقال آخر^(٣٨) في المد:

يا رب لا تسلبني حبها أبدا ويرحم الله عبدا قال آمينا

٨- مع استخدامه الكثير للشعر العربي إلا أننا نجده أحيانا يذكر اسم الشاعر، وأحيانا يقول: قال الشاعر ولا يبين من هو، وهذا الذي لا يبينه نجده أحيانا معروفاً وأحيانا أخرى مجهولاً وقد لا نجده في المصادر فلا يعرف قائله. فمثال ما ذكر قائله: في معرض تعليقه على كلمة بعض في قوله تعالى: ﴿وَلِأَجَلٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(٣٩) وأنها تكون أحيانا بمعنى الكل، فيقول: "واستدل صاحب هذا القول بقول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها أو يعتلق بعض النفوس حمامها^(٤٠).

ومثال ما يستشهد به من أشعار دون أن يذكر قائله مع أنه معروف قوله: كقول الشاعر:

فإني إذا أوعدته أو واعدته لمختلف إيعادي ومنجز موعدي".

فالقائل هو أبو عمرو^(٤١).

وأخيراً هناك كمّ - لا بأس به - من الأبيات الشعرية التي يستشهد بها المصنف ولا يذكر قائلها كمثال السابق لكن مع البحث والتحري نجد له مورداً، وإن لم نعرف قائله، مثال ذلك ما يقوله المصنف في

٣٧- محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، مادة: فطحل، ولم أجد القائل.

٣٨- قاله عمر بن أبي ربيعة، لسان العرب، مادة أمين.

٣٩- سورة آل عمران، الآية: ٥٠.

٤٠- لسان العرب، ج ٧، ص ١١٩.

٤١- أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، تهذيب التهذيب، دار الفكر، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ج ٨، ص ٦٣، ١٣٠.

معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ (٤٢) "أي يعدكم بالفقر، فحذف الباء كقول الشاعر:

أمرتك الخير لكن ما اتتمرت به فقد تركتك ذا مال وذا نسب"

فهذا البيت ورد في عدة مصادر إلا أنهم لم يشيروا إلى قائله (٤٣).

٩- يعتمد في تفسيره على الرواية والدراية، ولا يأخذ جانباً ويترك الآخر. مثال ذلك: في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ﴾ (٤٤) يقول المصنف: "قال الأخفش: كل عات يتمرد فهو شيطان.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: شياطينهم: رؤساؤهم وكبرائهم وكهنتهم، وهم خمسة نفر من اليهود، ولا يكون كاهن إلا ومعه شيطان، منهم كعب بن الأشرف بالمدينة، وأبو بردة في بني أسلم، وعبد الدار في جهينة، وعوف بن عامر في بني أسد، وعبد الله بن السود بالشام.

والشيطان: المتمرد العاتي من كل شيء، ومنه قيل للحية النضناض شيطان. قال تعالى:

﴿طَلَعَهَا كَأَنَّهٗ رُءُوسَ الشَّيَاطِينِ﴾ أي الحيات".

١٠- تعرضه للقراءات المختلفة للكلمات والآيات في كثير من المواضع، وقيامه ببيان المعنى المرتبط بكل قراءة، بما في ذلك القراءات غير المتواترة والقراءات الشاذة. مثال ذلك: في بيانه لقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يقول المصنف: "أي يخالفون الله ويكذبونه، ويكذبون المؤمنين ويخالفونهم في ضمايرهم، وهم المنافقون. وأصل الخدع في اللغة الاختفاء... واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يُخَادِعُونَ﴾ فقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو: "يخادعون" بالألف، وقرأ الباقر: "يخادعون" بغير الألف على أشهر اللغتين وأفصحهما، واختاره أبو عبيد ولا خلاف في الأول أنه بالألف".

٤٢- سورة البقرة، الآية: ٢٦٨.

٤٣- محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الأملي أبو جعفر الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج ٩، ص ٧٩، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرمي شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق هشام سمير البخاري، دار عالم الكتب، الرياض، السعودية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج ٣، ص ١٧٢.

٤٤- سورة البقرة، الآية: ١٤.

١١ - يورد تفاصيل لبعض الحوادث والمواقف التي أشار إليها القرآن إجمالاً لإعطاء القارئ الصورة المكتملة عن ذلك الحدث نظراً لعلاقته الوطيدة بما يذكر في الآيات. مثال ذلك: قصة المباهلة مع النصارى، حيث يبين وقائعها من خلال الروايات والأقوال المختلفة، حتى يوضح مسألة المباهلة التي وردت في تلك الآية، ففي تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (٤٥) يقول: "قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية على نصارى نجران، وقال لهم: إن الله أمرني أن أباهلكم إن لم تقبلوا، قالوا له: يا أبا القاسم بل نرجع فننظر في أمرنا ثم نأتيك فنعلمك. فرجعوا فخلاً بعضهم ببعض، وقال لبيد للعاقب: قد والله علمت أن الرجل نبي مرسل ولئن لاعتموه يا معشر النصارى ليستأصلنكم، وما لاعن نبي قط قوما فعاش كبيرهم، ولا ثبت صغيرهم، وإن أنتم أبيتم إلا إلف دينكم فوادعوه وارجعوا إلى بلادكم، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من الغد وقد خرج بنفر من أهله محتضناً الحسين آخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي على إثرهم وعلي بعدها، وهو يقول لهم: إذا أنا دعوت فأمنوا. فقال واحد من النصارى: والله إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلاً من مكانه لأزاله فلا تبتهلوا فتهلكوا ولا يبقى على الأرض نصراني إلى يوم القيامة، فقالوا: يا أبا القاسم قد رأينا ألا نلاعنك ونتركك على دينك ونثبت على ديننا، فقال: فإن أبيتم المباهلة فأمنوا لكن لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم فأبوا، فقال: إني أنابذكم، فقالوا: ما لنا بحرب العرب من طاقة، ولكننا نصلحك على أن لا تغزونا ولا تخيفنا ولا تردنا عن ديننا، على أن نؤدي إليك كل عام ألفي حلة، ألف في صفر وألف في رجب، فصالحهم رسول الله على ذلك، وقال لهم: وإن كان كون باليمن أعتمونا بثلاثين درعاً وثلاثين فرساً، وثلاثين بعيراً، والمسلمون ضامنون لها حتى يردوها عليكم وكتب لهم كتاب الأمان والصلح:

بسم الله الرحمن الرحيم

"هذا ما كتب محمد رسول الله لنجران في كل ثمرة وكل صفراء وبيضاء وسوداء ورقيق، وأفضل عليهم، وترك ذلك كله على ألفي حلة، في كل صفر ألف حلة وفي كل رجب ألف حلة ثمن كل حلة أوقية، وما زادت الحلل على الأواق فبحسابها، وما نقص من درع أو خيل أو ركاب فبحسابه، وعليهم عارية ثلاثين درعاً وثلاثين فرساً وثلاثين بعيراً أو كان كيد باليمن ولنجران وحشيتها جوار الله تعالى وذمة محمد صلى الله عليه وسلم على أنفسهم ولا راهب من رهبانيه، ولا يحسرون من بلادهم، ولا

يعسرون، ولا يظأ أرضهم جيش، من سأل منهم حقا فله النصف غير ظالمين ولا مظلومين، ومن أكل الربا من ذي قبل فذمتي منه بريئة، ولا يوجد منهم رجل يطلب آخر لهم جور الله وذمة رسول الله أبداً حتى يأتي الله بأمره ما نصحوا وأصلحوا فيما عليهم غير مثقلين بظلم، شهد الشهود: أبوسفیان بن حرب، وعيلان بن عمر، ومالك بن عوف وغيرهم. ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم معاذ بن جبل ليقضي في الحق فيما بينهم. ورجعوا إلى بلادهم، فقال: لو باهلوني لاضطرم الوادي عليهم ناراً ولم ير نصراني ولا نصرانية إلى يوم القيامة" (٤٦).

وفي بعض الروايات أنه قال: "لو التعنوا لهلكوا كلهم حتى العصافير في سقوطهم" (٤٧). وفي بعض الروايات أن النبي قال: "والذي نفسي بيده إن العذاب تدلى على أهل نجران، ولو تلاعنوا المسخوا قردة وخنازير، ولاضطرم الوادي عليهم ناراً، ولاستأصل الله نجران وأهله، حتى الطير والجر وما حال الحول على النصارى كلهم حتى هلكوا" (٤٨). فدل هذا الخبر على أن امتناعهم عن المبالغة لم يكن إلا لعلمهم بأن الحق مع النبي صلى الله عليه وسلم ولو لم يعلموا ذلك لباهلوا".

١٢- يعطي الشرح والتفصيل حقه في المكان المطلوب فيه، ويوجز ويختصر إن لم يكن هناك حاجة لذلك، خاصة إن كان قد شرح ذلك في مكان آخر، فلا يميل إلى التكرار. ومثال ذلك ما جاء في معرض تعريفه بقصة قوم عاد عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ آلِ نُوحٍ وَآلِ لُوطٍ وَأُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ آلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٤٩)، حتى قوله تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَلْيَسَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (٥٠) متسلسلاً بين المواقف والأحداث المختلفة جاء بذكر قصة قوم عاد متكاملة وجعل لها فصلاً خاصاً فقال:

٤٦- انظر: أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي، دلائل النبوة، وثق أصوله وخرج أحاديثه وعلق عليه عبد المعطي قلنجي، دار الكتب العلمية ودار الريان للتراث، ط ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج ٥، ص ٤٨٥، وانظر: أبو إسحاق الزجاج، معاني القرآن وإعرابه، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ج ١، ص ٤٢٣.

٤٧- محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، معالم التنزيل، حققه وخرج أحاديثه محمد بن عبد الله النمر، جمعه ضميرية، سليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٤، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج ١، ص ٣٠٩-٣١٠.

٤٨- علي بن إبراهيم بن أحمد الحلبي الشافعي، إنسان العميون في سيرة الأمين المأمون (السيرة الحلبية)، تحقيق وترجمة عبدالله محمد الخلي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٢م، ج ٣، ص ٢٣٦، وتفسير البغوي، ج ٣، ص ٣١١.

٤٩- سورة الأعراف، الآية: ٦٥.

٥٠- سورة الأعراف، الآية: ٧٢.

"فصل: وكانت قصة عاد وإهلاكهم على ما ذكره السدي وغيره من المفسرين: أن عاداً كانوا يسكنون اليمن، وكانت مساكنهم الأحقاف، وهي رمال يقال لها رمل عالج ودهمان ويبرين ما بين عمان إلى حضرموت، وكانوا قد فشوا في الأرض، وقهروا أهلها بقوتهم التي أعطاهم الله إياها، وكانوا يعبدون الأوثان، فبعث الله إليهم هوداً عليه السلام نبياً، من أوسطهم في النسب وأفضلهم في الحسب، فأمرهم أن يوحدوا الله ولا يعبدوا غيره، وأن يكفوا عن الظلم، فأبوا عليه وكذبوه وقالوا: من أشدّ منا قوة؟ وتجبروا في الأرض، وبطشوا بطشنة الجبارين، فلما فعلوا ذلك أمسك الله عليهم المطر ثلاث سنين حتى جهدهم، وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء وجهدوا مضوا إلى البيت الحرام بمكة - مسلمهم وكافرهم - وسألوا الله الفرج، وكل الناس مسلمهم وكافرهم معظم مكة - حرسها الله تعالى - عارف بحرمتها، وكان أهل مكة يومئذ العماليق، أبوهم عمليق بن لاود بن سام بن نوح، وكان رئيس العماليق يومئذ بمكة رجل يقال له معاوية بن بكر، وكانت أمه من عاد فلما قحط المطر من عاد وجهدوا قالوا: جهزوا منكم وفداً إلى مكة يستسقوا، فعينوا قيل بن عنز، ولقيم بن هزال في سبعين رجلاً، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو في خارج مكة، فأنزلهم وأكرمهم وكانوا أخواله وأصحابه، فأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان، وهما قيتتان لمعاوية، فلما رأى معاوية طول مقامهم وقد بعثهم قومهم يتغوثون من البلاء الذي أصابهم، شق ذلك عليه، فقال: إخواني وأصحابي وهؤلاء يقيمون عندي وهم ضيفي، والله ما أدري كيف أصنع بهم، أستحيي أن أمرهم بالخروج إلى حاجتهم فيظنوا أن ذلك لضيق مكانهم عندي، وقد هلك قومهم من ورائهم جهداً وعطشاً. فشكى ذلك إلى قيتتي الجرادتين، فقالتا: قل شعراً نغنيهم به لا يدرون من قاله، لعل ذلك يخرجهم. فقال معاوية^(٥١):

ألا يا قيل ويحك قم فهينم	لعل الله يسقينا غماما
فيسقي أرض عاد إن عادا	قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس ينجو	به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير	فقد أمست نساؤهم أياما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم	نهاركم وليلكم التماسا
فقبح وفدكم من وفد قوم	ولا لقوا التحية والسلاما

٥١ - معاوية بن بكر، تفسير الطبري، ج ٥، ص ٥٢٣، أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني النيسابوري، مجمع الأمثال،

تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ج ١، ص ١٣٢.

فلما غنتهم الجرادتان بهذا قال بعضهم لبعض: يا قوم قد أبطأتم على أصحابكم، فقوموا وادخلوا الحرم واستسقوا، فتقدموا إلى الحرم، فقام قيل بن عنز يستسقي في المسجد، فقال: اللهم إني لم أجد لمريض فأداويه، ولا لأسير فأفاديه، اللهم اسقنا فإننا قد هلكنا، اللهم اسق عاداً ما كنت تسقيهم، وقال قومه: اللهم أعط قبيلاً ما سألك، واجعل سؤلنا مع سؤلله، فأنشأ الله سحابة بيضاء، وسحابة حمراء، وسحابة سوداء، ونودي: يا قيل اختر لنفسك ولقومك من هذا السحاب ما شئت، فقال: قد اخترت السوداء لأنها أكثر السحاب ماء، فنودي اخترت رماداً رمداً، لا يبقى من آل عاد ولدأ ولا شيخاً إلا وصاروا همداً. ثم ساق الله السحابة السوداء التي اختارها قيل بها فيها من النعمة والبلاء إلى عاد حتى خرجت عليهم من واد لهم يقال له المغيث، فلما رأوها فرحوا وقالوا هذا عارض ممطرنا، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿... بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٢﴾ تَدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا...﴾ (٥٢)، أي كل شيء مرت به، فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً (٥٣)، أي دائمة، فكانت الريح تحمل الظغن ما بين السماء والأرض وتدمغهم الحجارة، وكانوا قد حفروا لأرجلهم في الأرض وغيبوا إلى ركبهم، فجعلت الريح تدخل تحت أقدامهم وترفع كل اثنين وتضرب بأحدهما الآخر في الهواء ثم تلقيهما في الوادي، والباقون ينظرون حتى رفعتهم كلهم، ثم رمت بالتراب عليهم، فكان يسمع أنينهم من تحت التراب، فاعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة، فما كان يصيبهم من الريح إلا ما يلين جلودهم وتلذبه أنفسهم.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: "لما أراد الله إرسال الريح العقيم إلى عاد، أوحى الله إلى الريح أن تخرج إلى عاد فتنتقم منهم، فخرجت على قدر منخر الثور حتى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب، فقالت الخزان: يارب لن يطيقها ولو خرجت على حالها لأهلك ما بين مشارق الأرض ومغاربها، فأوحى الله أخرجي على قدر خرق الخاتم، فخرجت على قدر ذلك" (٥٤).

قال السدي: "فلما بعثت الريح إليهم ودنت منهم نظروا إلى الإبل والرجال تطير بهم الريح بين

٥٢- سورة الأحقاف، الآيتان: ٢٤-٢٥.

٥٣- كما ورد في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾، سورة الحاقة، الآية: ٢٧.

٥٤- قال السيوطي: "أخرج إسحاق بن بشر وابن عساكر من طويل عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال لما أوحى الله إلى العقيم أن تخرج على قوم عاد فتنتقم له منهم فخرجت بغير كيل على قدر منخر ثور حتى رجفت الأرض ما بين المشرق والمغرب..."، انظر: تفسير السيوطي، ج ٣، ص ٤٨٦.

السماء والأرض، فتبادروا إلى البيوت، فأخرجتهم الرياح من البيوت حتى أهلكتهم على ما ذكرنا" (٥٥).

وهكذا نجده قد أطل في سرد هذه القصة ذاكر العديد من الروايات مدعماً وموضحاً وقائماً.

١٣ - وما تجدر الإشارة إليه وبيانه أن أبا بكر الحداد يكثر من الاستشهاد بالروايات بما فيها من الروايات الإسرائيلية وروايات الضعفاء، إضافة للروايات الصحيحة، دون الإشارة لدرجة تلك الرواية، ويكتفي بذكر الرواة، وذلك على نمط التفاسير القديمة التي تعتمد على إمام القارئ بالرواية ودرجاتهم.

ومثال ذلك ما جاء في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَأَمَنَّا﴾ (٥٦).

يقول المصنف: "وقال الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه، وذلك أنهم خرجوا ذات يوم فاستقبلهم نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال عبد الله لأصحابه: انظروا كيف أورد هؤلاء السفهاء عنكم، فذهب فأخذ بيد أبي بكر رضي الله عنه فقال: مرحبا بالصديق وسيد بني تميم وشيخ الإسلام وثاني رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد عمر رضي الله عنه وقال مرحبا بسيد بني عدي بن كعب الصادق القوي في دين الله عز وجل، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخذ بيد علي كرم الله وجهه فقال مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وبختنه وسيد بني هاشم ما خلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال له علي رضي الله عنه: اتق الله ولا تنافق فإن المنافقين شر خليفة الله، فقال: مهلاً يا أبا الحسن، والله إن إيماننا كإيمانكم وتصديقنا كتصديقكم. وفي رواية: والله إني مؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم ثم افترقوا، فقال عبد الله لأصحابه: رأيتموني فعلت، فإذا رأيتمهم فافعلوا كما فعلت، فأتوا عليه وقالوا: لا نزال بخير ما عشت، فرجع المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه بذلك، فأنزل الله هذه الآية.

في أسباب النزول للسيوطي قال: أخرج الواحدي والثعلبي من طريق محمد بن مروان وابن السدي الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي وأصحابه معلقاً: هذا الإسناد واهٍ جداً، فإن السدي الصغير كذاب وكذا الكلبي، وأبو صالح ضعيف.

ومثال آخر ما ذكره في فضل سورة المائدة حيث يقول المصنف: وعن أبي بن كعب رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من قرأ سورة المائدة أعطي من الأجر بعدد كل يهودي

٥٥ - انظر: تفسير السيوطي، ج ٣، ص ٤٨٦.

٥٦ - سورة البقرة، الآية: ١٤.

ونصراني تنفس في الدنيا عشر حسنات، ومحى عنه عشر سيئات، ورفع له عشر درجات" (٥٧).

الخاتمة:

إن كتاب الله العزيز مهما تناوله العلماء الجهابذة والمفسرون المتقنون وطلبة العلم بالدراسة والتحليل واستنباط الدروس والمعاني والحكم والأحكام... فلن يفي هؤلاء حق كتاب الله الذي أودع الله فيه الحقائق والحكم والتاريخ... وسيبقى الدارسون ينهلون منه على مر الأزمان وإلى قيام الساعة، ولن ينقص ذلك من كتابه المجيد إلا كما ينقص المحيط إذا أدخل البحر، ولن يأتي يوم يقول فيه مسلم على وجه الأرض بأننا قد غطينا كتاب الله دراسة بل ستستمر الحاجة إلى دراسته ومدارسته للتزود بما فيه من علم وإيمان.

وما قام به الحداد في تفسيره كشف التنزيل في تحقيق التأويل من جهد كبير شهد له أهل العلم كان نموذجاً طيباً نافعا للناس حيث لم يسهب ويفصل ويكرر فيه بحيث لا يتناوله إلا أهل العلم من الدارسين والباحثين، ولم يختصر بشدة بحيث لا يتناوله إلا عامة الناس، فقد كان نافعا للجميع حيث توسط بين الإسهاب الممل والاختصار المخل، وهو بهذا أقرب ما يكون لتفسير البغوي (٥٨) وقد أخذ عنه كثيراً إلا أنه لم يفعل ما فعله البغوي، فتفسير البغوي على الأرجح هو ملخص لتفسير الثعلبي (٥٩) إلا أنه حذف منه الأحاديث الموضوعية والبدع، فمما يستدرك على الحداد ذكره للروايات الضعيفة والموضوعية والإسرائيليات، والقراءات الشاذة، دون التنبيه إليها أو التعريف بها كما نبه ابن كثير على سبيل المثال، فهو بهذا أقرب إلى تفسير الثعلبي، مما يجعل الاستفادة منه من قبل عامة الناس مشوباً بالحذر من هذه الناحية رغم أن ذلك كان نهج المفسرين الأوائل ممن سبقوه، وعلى رأسهم الطبري في تفسيره (٦٠) حيث كان يسهب في ذكر الروايات الضعيفة، والموضوعية، والإسرائيليات دون أن يشير إليها أو يبينها للقارئ (٦١).

٥٧- هو جزء من حديث مطول عن أبي بن كعب يذكر فضائل القرآن سورة سورة، أورده محمد بن محمد أبو شهبة تحت مبحث الأحاديث الموضوعية في فضائل السور والآيات في كتابه: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، مكتبة السنة، ط ٤، ١٤٠٨ هـ، ج ١، ص ٣٩٤. الزنجشيري، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، تأليف: جمال الدين أبو محمد عبدالله بن يوسف بن محمد الزليعي، تحقيق: عبدالله بن عبدالرحمن السعد، ط ١، ١٤١٤ هـ.

٥٨- محي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، ت ٥١٠ هـ، معالم التنزيل.

٥٩- أبو إسحق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، ت ٤٢٧ هـ، الكشاف والبيان عن تفسير القرآن.

٦٠- محمد بن جرير الطبري، ت ٣١٠ هـ، جامع البيان في تأويل آي القرآن.

٦١- انظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثانية، ١٣٩٦ هـ/ ١٩٧٦ م، بيروت، لبنان، ج ١، ص ٢٢٧، ٢٣٤، ٢٤٢.